الوقفة الأولى

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾

❁ الشيطان عدو الإنسانية، وإمام أهل الشرِّ:

لقد كان الشيطان ولا يزال عدوَّ الإنسانية الأول، وإمام أهل الشرِّ، وهو الأصل والمرجع لمنظومة الفساد كله إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ (فاطر). فهو - لعنه الله - أصل كل عداوة، ومصدر كل شرٍّ، فالكذب لغته، وزخرف القول فصاحته، والكبر طبعه وسجيَّتُه، والحقد والبغضاء سمومه، والمكر والخداع حيلته، والنفاق لباسه ومسكنه، والشهوات حبائله، وإثارة الفتن فراشه ومضجعه، والألفة بين الناس مفزعه، وذكر الله مهلكه ومصرعه.

قد يئس أن يكون إلهًا يُعبد، لكنه رضي بمحقرات الأعمال، لا ييأس في نصب شراكه لأهل الإيمان، يرضى منهم ولو بالقليل من المعاصي، وإن كان يطمح إلى المزيد من الفسق والفجور، حتى يكون غاية ما يتمناه أن يوقع العباد في براثن الكفر والشرك والنفاق.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى له من اسمه ما يتفق مع سوءه وشره، فانطبق الاسم على المسمَّى.

فهو **(الشيطان)**. وهي كلمة في لغة العرب مشتقة من **(شَطَنَ) يقال:** شطنَت البئر إذا كانت بعيدة القاع. فالشيطان بعيد بفسقه وكفره عن كل خير، بعيد عن رحمة الله ﷻ.

وَالشَّيْطَانُ: مَعْرُوفٌ، وَكُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ والإِنس وَالدَّوَابِّ شَيْطَانٌ.

وَقِيلَ: الشَّيْطَانُ فَعْلان، مِنْ شاطَ يَشيط إِذا هَلَكَ وَاحْتَرَقَ. لكن المعنى الأول أرجح [١].

وهو **(إبليس)**: وهي كلمة مشتقة من **(أبلس)** أي آيس، وإِبليس: مُشْتَقٌّ مِنْهُ، لأَنه أُبْلِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّه أَي أُويسَ. وقيل: أبلس من الإبلاس. وهو انقطاع الحجة والحيلة. **فقيل:** بأن إبليس سُمِّيَ بهذا الاسم لأنه لما أُويسَ من رحمة الله ﷻ أبلس يأسًا بسبب انقطاع حجَّته أمام الله ﷻ [٢].

والشيطان - لعنه الله - له مع أهل الحق مواقف ومشاهد قد ذكرها رب العزة جلَّ وعلا في كتابه الكريم.

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة: شطن (١٣/ ٢٣٧).

(٢) المصدر السابق، مادة: بلس (٦ / ٢٩- ٣٠).

لكن موقفه وحواره مع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد يكون الأكثرَ وضوحًا، والأشدَّ تصريحاً، حيث تضمَّن الحوار كل أساليب المكر والدهاء، ووسائل الغواية والإضلال من إبليس لبني البشر إلى يوم القيامة.

ولذلك. فكَمْ وقعَ في شَرَكِه أقوامٌ وأقوامٌ، وزلَّت في جُبِّ ضلاله أقدامٌ وأقدامٌ.

وحول هذا الحوار الطويل بين آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإبليس -لعنه الله - لنا هذه الوقفات التأملية مع الآيات القرآنية التي سجلت هذا الحوار وتلك المواقف.

❁ ❁ ❁

❁ آدم. والشيطان. والشجرة:

هي وقفة أمام هذا التحذير القرآني من إبليس اللعين، وذلك من خلال هذا العرض الدقيق لقصة إغواء هذا اللعين لآدم وحواء في الجنة، واستدراجهما حتى أكلا من الشجرة التي حذرهما ربُّ العزَّة منها، وما تبع ذلك من كشف لسوءاتهما. ثم خروجهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض.

وهذه القصة في الحقيقة قد أفردت لها مساحات كبيرة من العرض القرآني. وبسطت في مواضع كثيرة من القرآن

الكريم. منها: سور: (البقرة، والأعراف، وطه)، وغيرها.

ونحن في هذه الوقفة التأملية نذكر بعض اللفتات الجميلة، والإشارات اللطيفة في هذه القصة من خلال ما ورد في هذه السور الثلاث باعتبار أن غالب مشاهد القصة ذُكِرَتْ فيها.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأعراف).

وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ

ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الاعراف).

وقال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (طه).

والقصة بإيجاز تقول: بأن الله تعالى خلق آدم وحواء، وأسكنهما جنته، وأباح لهما أن يأكلا من كل شجر الجنة عدا شجرة واحدة قد نُهيا عن الأكل منها. أو حتى مجرد الاقتراب منها.

فجاء إبليس اللعين، وظل يُغري آدم وزوجه، ويوسوس لهما حتى نسيا أمر الله تعالى فأكلا من هذه الشجرة، فكانت النتيجة أن انكشفت على الفور سوءاتهما، وأسرعا عندئذ بالقطف من أوراق شجر الجنة لتغطية بدنيهما، وستر عوراتهما، ثم بعد ذلك أُخرجا من الجنة، وأهبطا إلى الأرض

ليبقى العداء الدائم والأبدي بين بني آدم وإبليس إلى قيام الساعة. هذا هو ملخص هذا الجزء من القصة كما جاء ذكرها في القرآن الكريم. لكن المتدبر لهذا العرض القرآني للقصة في هذه الآيات. يجد أنه يعيش في بحر مليء بالمعاني والأسرار حيث تستوقفه هذه اللفتات الكريمة.

❁ ❁ ❁

❁ اللَّفتة الأولى:

أول ما يلفت النظر والانتباه من هذا العرض هو العلاقة بين معصية آدم وهي أكله من الشجرة، وانكشاف العورات. حيث تقرأ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾. ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾. وهكذا.

فما هو سرُّ هذا الارتباط الوثيق بين الأكل من الشجرة وظهور عورات آدم وحواء؟ ولماذا التركيز القرآنيُّ على هذه العلاقة؟

إن القضية في غاية الأهمية والدقة، فليس الأمر هو مجرد أكل من الشجرة، وليست العاقبة مجرد انكشاف عورة؛ لكن القضية في أصلها هي أخطر من ذلك.

أما عن الأكل من الشجرة، فلا ينبغي أن ينظر له على أنه مجرد مخالفة، بل هي مخالفة ومعصية في حق المِلك سبحانه وتعالى، والصغيرة عند المِلك تُعَدُّ كبيرة.

قَالَ بِلالُ بْنُ سَعْدٍ: « لا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِ الْخَطِيئَةِ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ »[1] - وهو الله جلَّ وعلا -..

نعم. إذا أذنبت فلا تنظر إلى قدر الذنب فتستصغره، ولكن انظر إلى عظمة من أذنبت في حقه، وهو الله ﷻ، فيعظم عندك ذنبك وإن كان صغيرًا. **هذه واحدة.**

أما الثاني فهو: أن الذنب قد حدث من أول البشر وأبي البشر الذي سيكون قدوة لمن يخلفه من ذريته. هذا من ناحية معصية آدم. أما العاقبة التي ترتبت على المعصية فليست مجرد انكشاف عورة؛ لأنك لو تأملت هذه العاقبة لوجدتها من أخطر وأشد العواقب.

فما أخطر ظهور العورات وانكشاف السوءات!! وهل تعاني الأمة الآن، بل والبشرية كلها إلا من هذه العاقبة الوخيمة؟ وآثارها السيئة؟ وهل يحصد العالَمُ كله في عصرنا الحاضر أشد غصَّة ومرارة، من هذا الخطر القاتل، وهذا الوباء الجاثم؟

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (١/ ٢٠).

وهل جرَّ الويلات والنكبات للأمم والشعوب إلا هذه النتيجة الخطيرة للمعاصي والذنوب، والمتمثلة في العُري والفجور والإباحية؟ وما يتبع ذلك من فواحش على اختلاف أشكالها وألوانها. ثم ما ترتب على ذلك من آثار سيئة في جميع مناحي الحياة: اجتماعيًّا وأخلاقيًّا واقتصاديًّا، بل وسياسيًّا، حيث ترى الفساد قد مدَّ مخالبه القاتلة في جميع الاتجاهات، وأصبح العالم كله يشكو ما ألَمَّ به من مصائب وبلاءات من أطفال الشوارع، ونسل غير معروف الهوية، واختلاط أنساب، وأمراض وأوبئة قد حار الطب في أدوائها، إلى غير ذلك من الدمار البدني والنفسي، والاجتماعي والأخلاقي، وكل ذلك قد أثر بدوره على حياة الناس المعيشية والاقتصادية.

إذن فليس الأمر هيِّنًا أن يقول الحق جلَّ وعلا ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾، أو يقول: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾. إنما أراد الحق سبحانه أن ينبه بالأدنى على الأعلى. ويشير بأول خطوة على طريق الفاحشة إلى ما يلي ذلك من خطوات، لتصل في النهاية إلى نتائج فاضحة وعواقب وخيمة. وكأنه جلَّ وعلا يقول لنا بأن المعصية هي سبب كل عُري وفجور، وهي سبب كل فضيحة وعار. المعصية هي سبب

التبرج والسفور، والفواحش والهلاك.

فإذا رأيت العُريَ والسُّفور في مكان، فاعلم أن ذلك بسبب ذنوب العباد ومعاصيهم.

❁ ❁ ❁

❁ اللَّفتة الثانية:

أما اللَّفتة الثانية فهي بخصوص معصية آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: بماذا كانت؟. كانت بأكله من الشجرة المحرَّمة. أى بسبب تناول الحرام. فبمجرد أنه أقبل على الحرام وذاق من الحرام تعرَّى بدنه ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وهكذا شأن الحرام دائمًا.

بتناول الحرام يتلوث الباطن، فإذا فسد الباطن فسد لفساده الظاهر. **{لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ}**[1]. سبحان الله !! طعمة واحدة من حرام تناولها آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزوجه كانت سببًا في ظهور سوءاتهما. وتجردهما من لباسهما!! فما بالنا بمن لا يعيش إلا على الحرام، ومن الحرام: طعامه وملبسه، ومسكنه، بل وحياته كلها؟

وهل هناك من برهان أدل على ذلك مما نرى من حولنا مما

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٥٢٨٤)،والترمذي (٦١٤)، وابن حبان في صحيحه (١٧٢٣)، وصحَّحه الألباني.

عمَّت به البلوى من تفشٍّ للربا، وانتشارٍ للرشاوَى، واستحلال أموال الناس بشتَّى الحيل؟

وكلها في النهاية لا تعني إلا شيئًا واحدًا هو: أكل الحرام فإن كان آدم وحواء عليهما السلام قد تذوقا أو أكلا لقمة واحدة، وثمرة واحدة من شجرة واحدة للحرام. فما أكثر أشجار الحرام، والمتناولين له في زماننا.

ولذلك. انظر. تجد أنه لم يعد للحياء والحشمة والعفاف مكان بين الناس إلا كمثل قطرة في بحر، أو كمثل خيط رفيع أبيض في ثوب سابغ من السواد.

كما قال الشاعر:

ذهب الحياء مع العفاف فما ترى *** إلا بقايا من تراث قَدْ رُدِم

قد عَزَّت الأخـلاقُ عِزَّ حماتها *** وتهاوت المثل العلية من شَمَمْ

❁ ❁ ❁

❁ اللَّفتة الثالثة:

أما اللفتة الثالثة: فهي مع هذا السؤال: لماذا سارع آدم وحواء للقطف من أوراق الجنة ولصقها على أبدانهما؟ وهل كان هناك غيرهما من البشر؟ حتى يواري كل منهما عورته من الآخر؟ في الوقت الذي كان كل منهما زوجًا للآخر؟

ومعلوم أنه لا حرج أن يرى كل من الزوجين عورة الآخر. فمم الحياء والحرج إذن؟

إنَّ هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن خلق الحياء خلق جبلي، فطر الله ﷻ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه منذ خلقه، فقد فطره على أن انكشاف العورة يخالف مقتضى الحياء والعفة، ليس شرطًا أن يكون ذلك أمام الناس. فإن الحياء في أصله حياء من الله تعالى، وهو أيضًا حياءٌ من النفس.

قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ }**[1].

جاء في التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « كَانَتِ الشَّجَرَةُ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا آدَمَ وَزَوْجَتَهُ السُّنْبُلَةَ، فَلَمَّا أَكَلا مِنْهَا بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا، وَكَانَ الَّذِي وَارَى عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا أَظْفَارَهُمَا، وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَرَقِ التِّينِ يَلْزَقَانِ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ، فَانْطَلَقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُوَلِّيًا فِي الْجَنَّةِ، فعلقت برأسه شجرة من الجنة، فناداه الله يَا آدَمُ أَمِنِّي تَفِرُّ؟ قَالَ: لا، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُكَ يَا رَبِّ، قَالَ: أَمَا كَانَ لَكَ فِيمَا مَنَحْتُكَ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَبَحْتُكَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً عَمَّا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ،

---

(١) أخرجه البخاري، ح (٣٤٨٤). من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِكَ مَا حَسِبْتُ أَنَّ أَحَدًا يَحْلِفُ بِكَ كَاذِبًا، قال: وهو قولُ اللهِ ﷻ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾» .... وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ فِي قَوْلِهِ ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾، قَالَ: « كَانَ لِبَاسُ آدَمَ وَحَوَّاءَ نُورًا عَلَى فُرُوجِهِمَا لا يَرَى هَذَا عَوْرَةَ هَذِهِ وَلا هَذِهِ عَوْرَةَ هَذَا، فَلَمَّا أَكَلا مِنَ الشَّجَرَةِ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا »[1].

فمن تدبَّرْ هذا جيِّدًا علم أن الحياء من الله تعالى هو أصل كل حياء. فمن تجرَّد منه فلا خير فيه.

❁ ❁ ❁

❁ اللفتة الرابعة:

أما اللفتة الرابعة: فهي بشأن الأسلوب الذي اتخذه الشيطان اللعين في إغوائه لآدم وحواء. فإبليس - لعنه الله - عندما يضل ابن آدم لا يأمره أمرًا، ولا يجبره على السوء جبرًا، وإنما يمكر به، ويُغري به، ويزيِّن له. كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (النمل).

وهو عندما يستخدم هذا الأسلوب الخبيث - أسلوب الإغراء

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٣٥٨). طبعة دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

والتزيين - لا يستخدمه عبثًا، وإنما عن دراسة جيدة للشخصية التي يريد إغواءها، حيث ينظر إلى الإنسان من زوايا محدَّدة، ويحدِّد بالضبط كيف ينفذ إلى نفسه، وما هو الشَّرَكُ المناسب لاصطياد فريسته. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... ﴿٢٧﴾﴾ (الأعراف).

كيف استطاع إبليس اللعين أن يُغوِي آدم وحواء؟ ويُغري بهما حتى أقدما على المعصية؟ وتناولا من الشجرة المحرَّمة؟ يبيِّن ربُّ العزَّة جلَّ وعلا ذلك في آيتين كريمتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأعراف).

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ (طه).

فلماذا: المُلْكُ والخلد؟ أمرٌ يحتاج إلى تدبُّر وتأمُّل!!

فأما المُلْكُ فهو الغِنَى. وهو كثرة المال وكثرة الأملاك، هو حُبُّ الإكثار من كل متع الحياة. هو حبُّ الأفضل في كل شيء، هو الأثَرَةُ وحبُّ الذات. يقول النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلأُ

جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ }[1].

وأما الخلد، فهو البقاء والخلود وعدم الفناء. قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ (الأعلى)، وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ (القيامة).

وهكذا قرأ إبليس ما في النفس البشرية من حبٍّ فِطريٍّ لهاتين الصفتين: حبِّ الغِنَى والتملُّك، وحبِّ البقاء والخلود.

ولو اطَّلعنا على حال غالب الناس في كل زمان، واستقرأنا حال الأمم والأفراد على مَرِّ العصور، لرأينا أنه ما أوقع الناس في الهلاك إلا الحرص على هذين الأمرين: الغِنَى والتملُّك والطمع وعلو منازل الدنيا. وكل ذلك يرجع إلى كلمة (المُلْك)، والحرص على الحياة والبقاء وعدم مفارقة المُلك.. وهذا يرجع إلى كلمة ﴿ٱلْخُلْدِ﴾، وكلمة ﴿لَّا يَبْلَىٰ﴾.

فدخل إبليس اللعين على آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هذا الباب، وهذا المنفذ المشار إليه في عبارَتَي: ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

و ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري، ح (٦٤٣٦) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم، ح (١٠٤٨)، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

✓ من أجل الملك والخلد:

فمن أجل الملك والخلد أقدم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الأكل من الشجرة المحرَّمة. ومن أجل الملك والخلد طغى الإنسان وظلم واعتدى على أخيه. وأكَلَ أموالَ الناس بالباطل. من أجل الملك والخلد اكتظت بنوك سويسرا وبنوك العالم بالملايين والمليارات من أموال الرِّبا التي استولت عليها فئات معدودة من كل شعب وأمة. وصدق رسول الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قال: **{ مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ }**[1].

فلا عجب إذن أن يُسَمِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء بـ «عُبَّاد المال» في حديثه الذي يقول فيه: **{ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ }**[2].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد، ح (١٥٧٩٤)، والترمذي، ح (٢٣٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح. عن كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري، ح (٢٨٨٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

✓ طاعة الله عِزٌ ونجاة:

وإذا كان آدم وحواء عليهما السلام قد أُخرِجا من الجنة، وأُهبطا إلى الأرض بسبب الخطيئة، وبسبب الذنب، فهكذا تفعل الذنوب بأصحابها، تُهبطُهم من العِزِّ إلى الذلِّ، من الراحة والدعة إلى التعب والشقاء. قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ (طه).

فالطاعة ترفع صاحبها إلى عزِّ القرب من الملك جلَّ وعلا، أما المعصية فهي منزلق خطير إلى الهاوية، وإلى الذل والشقاء. فمن أراد أن يرتفع ويعلو فعليه بطاعة الله ﷻ، فإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. ألا وهي جنة الأنس بالله ﷻ. وجنة رضا الله ﷻ هي منتهَى الآمال. وهي خير الأماني، وقد بين الحقُّ جلَّ وعلا الطريق إليها بحسن التوبة إلى الله ﷻ، وصدق اللجوء إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (طه). المعصية غواية. والتوبة نجاة وهداية.

❁ ❁ ❁

◘ وأخيـرًا:

وأخيرًا وفي وسط هذا العرض الجيِّد للقصة، وبين آيات التحذير من إبليس اللعين ومكائده ينطلق نورٌ آخر، وشعاع جديد يُضفي على العرض بهاءً وجمالاً. وذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ (الأعراف).

فالآية في سياقها تتوِّج تلك المعاني والفوائد من هذه القصة بقيمة إيمانية عالية. حيث يشير جلَّ وعلا فيها إلى أن الإنسان مَهْمَا تحلَّى وتزيَّن واستتر بأنواع اللباس والزينة. فإن هناك لباسًا هو أهم من ذلك، وأجمل من ذلك، وأحفظ من ذلك وأستر، إنه لباس التقوى. تقوى الله ﷻ، فمن ارتدى ثوب التقوى واستتر به فهو المستور المعصوم، وإن لبس من ثياب الدنيا أردأه، ومن تَعَرَّى من التقوى فلا يستره شيء أبدًا وإن لبس أفخر وأفخم الثياب، فإن كانت ثياب الدنيا الظاهرة تستر الأبدان، فإن تقوى الله تعالى تستر الأبدان والجنان، تستر الظاهر والباطن.. نعم ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾.

هذه التقوى مكانُها ومقرُّها القلب. كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

في حديثه {التَّقْوَى هَا هُنَا}، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ[1].

ولما كان القلب بين يدي الله ﷻ وَحْدَهُ عُلِمَ أنه لا بلاغ للوصول إلى هذه المنزلة إلا بإرضاء الله ﷻ. فبإرضائه تستقيم القلوب، فتستقيم الجوارح.

التقوى وقاية من الشيطان، ومن مكائد الشيطان، فمن اتَّقَى الله سَتَرَهُ، ومن اتَّقَى الله حفظه ورعاه.

أسأل الله أن يجعلنا من المتقين، وأن يجعلنا من المستورين، وأن يقينا الشيطان اللَّعين. إنه وليُّ ذلك، والقادرُ عليه.

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري، ح (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.